الباب الثاني

التاجر

"لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه موله العقل".

الشافعي

كان أبو حنيفة خزازا يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف، وقديما كان نبي الله إدريس أول من خاط الثياب، وكان الصديق أبو بكر بزازا وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجارا.

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة. كان أفلاطون يعمل في التجارة ويقول: "أريد الثراء ولكني لا أريده من الظلم"،ويبيع الزيت في مصر ليسد نفقات رحلاته، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان اسبنوزا يصنع العدسات.

كان أبو حنيفة تاجرا صناعته الفكر، ومفكرا يعمل في التجارة، ومن ثم كان توفيقه التجاري، الذي انحدرت إلينا أنباؤه مع التاريخ. ومرده قطعا إلى دراية ذات شعب، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر الحديث يسمو عن الإعلان، وهي ذرائع تكفي إحداها للنجاح، فكيف إذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة، وأناقة، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم، وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا في الأرض مراغما وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الأغنياء، مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم في معترك الحياة بالخروج إلى السوق العام، في صميم الميدان، أو في عرض الخضم، بالكدح والدأب واللغوب.

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التي يقف بإزائها المفكرون حزنى مبلسين، عقدة الفقر الذي عود الناس أن يلازم الفكر، والمفكر الذي يرتحل رحلة الحياة الدنيا جوعان تعسا نهدر المسغبة مزاياه. يقدح فكره ألمعية ولوذعية، ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة إلى ثمن بخس، دراهم معدودة! ويتراءى له بريق النعماء ويعجز عن الدنو منه والدلف إليه فتتحالف عليه مركبات النقص، وتضيق به المسالك المتنادحة، فينوء بالحياة مثلما ناءت به الحياة.. ويخرج منها محروما مقترا عليه في الرزق.

في حالتنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة، فلم يك ممن يجلسون إلى الأرض ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء، فإن السماء لا تطر ذهبا ولا فضة، أو يمدونها إلى الأمراء فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم، أو يرقبون أن تنهض حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ في حلبة من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبو، أو تصلى، أو تجلى.

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم إبراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض، فمن ابن الأغلب عليهم بعطائه فقال أسد: "لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقى..." ولم يكن أسد ليقولها إلا وهو القاضي العامل في القيروان، والفاتح الغازي الذي مات على رأس الجيش في حصاره لسراقوسة بصقلية سنة ٢١٣.

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله، وكلما أغناه الخالق عن الخلق أدناه إلى الحق.. وإذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله.

وأدرك الشافعي ذلك من بعده بنصف قرن فقال: "لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه موله العقل".

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه إلى البأساء والضراء بأمراس كتان من الرهبنة المضيعة، والتبتل المؤذي، في حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبدا، وفي أمة يقول رسولها إن أفضل الكسب "بيع مبرور وعمل الرجل بيده"، و"لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه".

و"نعم المال الصالح للرجل الصالح"، كما قال عليه الصلاة والسلام.

كان الليث بن سعد – إمام مصر – ذا ثراء عريض يضع الدنانير في الفالوذج فمن أكل من صحبه أكثر نالته دنانير أكثر..! وكان صاحبا لمالك بن أنس إمام دار الهجرة، وكان مالك يقول عنه: "حدثني من أرضى به من أهل العلم"، ومع ذلك كتب إليه في تثريب يقول: "بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق".

وأدركت ضفاف النيل لذع الضربة الموجهة إليها من شمس الصحراء، فاستعان الليث عليها بالله، يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقائق أو أكل الرقاق، فكتب إليه يقول: "قال تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)".

وعاش الليث في جاهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه الشافعي إنه "أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به".

كانت الكوفة عاصمة العراق، وكان العراق أثمن جوهرة في التاج، فيه ست كور، أولاها كورة الكوفة، وكان له شأن أي شأن، فيه النهران يجريان، بالرخاء والعمران، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضارة الروم، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد، كما تلاقى رجال الدين من كل رأي يجاهدون في سبيل العلويين، وفي سبيل الأمويين، وفي سبيل ابن الزبير، وفي سبيل بني العباس،وفي سبيل الأمة، أو في سبيل أنفسهم، فأي جيشان بعناصر الحياة، ولوازع النماء، وأسباب القوة، كانت تجيشه هذه الكورة،وأي مضطرب للفتى المثقف والتاجر الحصيف ثمة! وبخاصة إذا كان يبتغي النجاح بمعناه الإنساني

لا المالي، وبمعناه الذي أراده الله لا معناه الذي يحصى ويعد بمقدار ما ينتج من النقد، بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه.

بدأ أبو حنيفة حياته في التجارة يطبعه الطابع العلمي، فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة سماه للإمام الشعبي يوم وجهه للدرس الفقهي كما مر بنا، وهي ظاهرة تتراءى لك في حياة أبي حنيفة في غير موضع. مردها إلى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملي محض، حتى إذا كان في ريعان حياته قدم إليه رجل تاجر فقال له: "أراك تتجر، التجارة إذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب" ولئن كان ما عناه هو العلم العام، إن الطابع العلمي يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه،ولعل الفائدة التي يفيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى في العمل التجاري.

وهكذا دخل إلى السوق مدخلا كريما فأضحى فيه من المجددين والمجدودين، اختار لدكانه مكانا من أبرز أمكنة الكوفة في دار ليست هينة على التاريخ، هي دار عمرو بن حريث – الصحابي – يلتقي بها المؤرخ حيث يجد الجد في حياة العراق، وحيث يكون للأماكن شأن.

ففي سنة ٨٧٢ سار ابن الأشعث من البصرة إلى الكوفة لقتال الحجاج، وثار الكوفيون بواليهم، ومالوا إلى ابن الأشعث وسبقت إليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث، وفي سنة ١٢١ خرج زيد بن علي وخرج أهل الكوفة معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث، فهي لا مرية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرجاء المعارك.. وحيث سوق الحرير.

وإنك لتتصور مظاهر الذوق في ترتيب دكانه مما كان عليه في خاصة شأنه حسن هيئة، وبزة، وتفكير وتعبير، بل إنك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تتنسم العطر يتأرج من أردانه وزوايا دكانه، وتتصور النساء إذ أقبلن أو أدبرن، بائعات أو مشتريات، يغضضن من أبصارهن ولا يبدين زينتهن. يدلفن إلى الدكان كأنما يفدن إلى الدرس، ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع، وكأنما كن في الدكان في المحراب.

كان صاحب هذا الدكان يقول: "من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها، ومن وصف قدمها لم يكن عدلا"، ويقول: "إذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد"، وكان رحمه الله إذا مشى في الطريق، لا يعرف الرجل من المرأة. قال في وصية لأحد مريديه: ".. وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر إلى الأرض.. ولا تماكس بالحبات والدوانيق.." فيا له من رجل رفيع وتاجر رفيع.. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه

فلا يبخسها بإنفاقها في المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانيق أم بغير الحبات والدوانيق.

جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوبا وتوسلت إليه بسنها أن يرفق بها.

قال: دونك هذا الثوب يا أماه.

قالت: بكم؟

قال: بأربعة دراهم.

قالت: لا تسخر مني وأنا عجوز لا حيلة لي..!

قال: إنه لكذلك. لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلا أربعة دراهم. وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمنا للثوب الباقي.

أضف إلى هذه الصورة وإلى آداب التجارة، أن الحانوت ليس محلا للمدارسة، وإن تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة، وهكذا بقيت دار ابن حريث خالصة للتجارة. أما العلم فبقى دائما في مكانه. لا في السوق، ولا في الطريق.

في ذلك الحانوت يجلس سيد مكيث غير عجل، مخبور التجارب، يتقبل الناس بقبول حسن، وضاء المحيا، منبسط الطبع، ميمون النقيبة، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس، لا يمايل، ولا يتحيف، ولا يستكبر، ولا يستنكف. يقصده فظ القلب فيألفه، ويمر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه فإن كانت به فاقة وصله، وإن كان به مرض عاده. حتى يجره إلى مواصلته.

أما صدق المعاملة والنفرة من المماكسة، فكانتا كلمة السر في دكانه، لكأنما كانت كل ألواح "الثمن محدد" مرسومة في مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد إلى جدر الدار، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الأساتيذ في الجدال، إن لكل مقام مقالا.. وليس هنا مقام الجدال.

وهو لا يهتبل غفلة الزمان، أو غفلة الإنسان، بل إنه ليقطع أبعد الأشواط في مضمار النصفة، فلا إعلان، ولا شبهة إعلان، لما قد يكون في الإعلان من إبهام، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام.

كان الناس في ذلك العصر حديثي عهد برسالة الرسول ﷺ تأسرهم الكلمة إذا سيقت ولو في السوق، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفي دكانه.

طلب رجل ثوب خز، فقال لابنه حماد: يا حماد أخرج ثوبا، فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا: صلى الله على محمد..!

قال أبوه: مه قد مدحته.

ورفض أن يبيعه.

واضطرب المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد إلى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة إلى الثوب، وأظهر ما يكون استعدادا لدفع الثمن، ولكن الشيخ في غير مخاشنة ولا مشاقة، بل في سماح وإسجاح، رفض أن يبيع.

وعاد المشتري أدراجه.

وفي ذلك الحانوت بضاعة لا تعرضها الحوانيت الأخرى في سوق الخزازين، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة إلى الكوفة ليشتري لبنته جهازا، فينبهه الناس على الجهاز في دكانه "الفقيه الخزاز". وإن الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل.

وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشتريا فقبض منه ألف درهم واف، وباهى التلميذ بين يدي أستاذه بما صنع رد الأستاذ ما زاد على الثمن، بعد إذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها.

وكما كان التفكير أداته في الفقه، كان الفكر أداته في التجارة. كان الثمن في دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف إليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بقياس العدل والعقل، فكما كان القياس الأعظم في تاريخ الفقه على ما سترى بع كان القياس المنصف في ثياب الخز في دار ابن حريث.

حقا، إنك لا تستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجاري قد جاءه عن الفقه أو أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده، لكن ثمة قدرا متيقنا تستطيع أن تقرره بين الجوابين. هو أن الصدق والحزامة في التجارة قد هيأ له من النجاح أسبابا مواتية للتفرغ لدين الله، في روحانية المتعبد، يستقبل تلك اللمحات التي يبعثها الإلهام في الكون كومضات النور، والسعيد السعيد من رآها، وكانت ملكاته متحفزة تتلقاها. كما تستطيع أن تقرر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس في أفكاره، فغدا فقهه فقه الحياة التي نحياها. ورحم قلبه ضعف الإنسان، وكان التسامح كبرى قواعده، وتحمل مسئولية المخاطرة، فصدع بالرأي في مزاج موفق بين العمل والعلم، والمعقول والمنقول، وامتد بصره فشمل المستقبل ووضع لاحتمالاته ما يحكمها من الأصول متحرزا – كما قال – من البلاء قبل نزول البلاء.

وكما أثرت في الفقه التجارة، أحدث الفقه في التجارة آثاره. فلئن كانت في الفقه العصري مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وإن كانت تستزريها قواعد الآداب، إن الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق.

بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجارة وأعلمه أن في ثوب منه عيبا فبينه للناس، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمنا كاملا لثوب غير كامل – وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفا أو خمسة وثلاثين ألفا – فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشتري، ولكنه لم يهتد إلى الرجل، فأبى أبو حنيفة إلا فصالا من شريكه وتتاركا.

بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملا.

ذلك مثله لإنصاف المشتري من نفسه، وهذا مثله إذ ينصف من نفسه البائع. جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم؟ قال بكذا. قال إنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف!! بل جاءته امرأة بثوب خز تبيعه بمائة. فقال لها هو خير من مائة. بكم تقولين؟ فزادت مائة، مائة، حتى قالت أربعمائة. قال هو خير من ذلك، قالت تهزأ بي؟ قال هاتي رجلا. فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم.

وصدقت المرأة أنه لم يتخذها سخريا، وصدقت كذلك أنه لم يك يريد الإحسان إليها.. وإنما نفع الله به البائع والمشتري.

فهو ينصف المشتري منه، والبائع له، وينصف من لا يبيع له ولا يشتري منه. كل أولئك ونظائره في لين وخفض جناح، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب، فإذا راح يقتضي دينه من مدينه لم يجلس في ظل جداره!! قالوا إنه لا يريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن يفئ إلى ظلاله إذ يجئ إلى داره، وهو الورع الحق، لكنه قبل ذلك الورع،دقة نفس ورقة حس، لا تضيف إلى عسر المدين إلحاح الدائن، إذ يترصده.. فلا يجزي المطال بالاحتلال وإن كان الاحتلال مجرد فئ إلى الظلال.

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذي وصفوه بأنه كان رجلا وسيما: "... وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته..."!

ذلك أبو بكر الصديق، وهذا أبو حنيفة، وقد كان بينهما تواصل ذهني يتراءى خلال ذلك التشابه: في العمل وفي الطباع، حتى إن أبا حنيفة كان يأخذ بأبي بكر وأفعاله وخصاله.

وذات يوم بعث إلى فتية يقول لهم: إن أباكم أودع عندي مائة وسبعين ألفا فخذوها..! ولم يشهد عليهم فإنه لم يكن أشهد عليه، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال.

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفا ردت لذويها.

وازدهرت تجارة أبي حنيفة أيما ازدهار، إن هذا الإنفاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم كما سترى بعد، وهذا التصدق بعشرات الآلاف، أو التجاوز عنها، لا تسمح به إلا البيوت المالية الوطيدة الأركان والناجحة كل النجاح، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل إن بعض أعداء أبي حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبي حنيفة استعملت في تقوية إبراهيم بن عبد الله (ابن الحسن بن الحسن بن علي) إذ خرج على أبي جعفر وإنه لهذا حبس أبا حنيفة.

إلى هذا القدر بلغت هذه الأموال.. أن تساعد في إدالة دولة وإقامة دولة...!

بهذه القواعد التي بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال كريمة الناس.

إنك لا تستطيع أن تقنع الناس بالرأي ولا بالعلم، فالدنيا مدرسة مكبرة، والحقائق لا تفهم مصورة، ولا مجهرة، قدر ما تفهم بالتطبيق. والناس في الدنيا كالتلاميذ في المدارس لن يفهموا شيئا إلا إذا صنعوه بأنفسهم، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء – والكلام لا يهدي قدر ما يهدي العمل، وما تهدي القدوة. والقدوة في العلم هي أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو تصبه من قوالب.

أذن النبي لصحبه وهم على سفر في الإفطار شهر رمضان وبقى هو صائما. فلم يقطعوا صومهم حتى عمد إلى الفطر، فخفوا إلى الاقتداء بفعله وأفطروا..

ونظر فتيان من أسباط الرسول عليه السلام – يجري في عروقهما دم الهدى والرسالة – إلى أعرابي على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما، لو قلنا له غلطت ربما انتفخت أوداجه، ولا ينقاد إلى الحق. فقاما إليه، وقالا له: نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون ألعم بالوضوء والصلاة منا، فنتوضأ ونصلي عندك، فإن كان عندنا قصور فعلمنا، فتوضآ وصليا كما عرفا عن جدهما عليه الصلاة والسلام، فتاب الشيخ ورجع عن صنيعته.

إن قاعدة الإصلاح في جيل هي أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث في إصلاح سواه. فالنفس هي التي تسمح لا الأذن. وفي الناس لجاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم إلى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام إليه.

خطب عمر بن الخطاب يوما وعليه ثوبان فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ قال سلمان: لا نسمع.

قال عمر: ولم – يا أبا عبد الله؟

قال: إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا، وعليك ثوبان.

قال: لا تعجل. ونادى: يا عبد الله! فلم يجبه أحد. قال: يا عبد الله ابن عمر – ابنه.

قال: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: نشدتك الله، الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟

قال: اللهم نعم.

قال سلمان: أما الآن فقل نسمع.

ذلك سلمان الفارسي أو الناس جميعا.. ومع الخليفة الذي خطب، عندما تولى: ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم إن استغنيت عففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تقرم البهمة الأعرابية القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الأكل بأقصى الأضراس).

وقديما قيل: خير من الخير فاعله. وشر من الشر فاعله.

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الآراء فقال: "إن الناس أحسنوا القول كلهم. فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه" ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام: "إن في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء،فيشرب عليهم من كان يعرفهم في الدنيا فيقول ما صيركم في هذا وإنما كنا نتعلم منكم؟! قالوا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم إلى غيره".

وقال: "تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا".

من أجل ذلك كان الزعماء العالميون قوما زاهدين، وخاض القادة المبرزون معاركهم في الصفوف الأولى وفي الطليعة: كخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وغاندي في الشرق، وكرومويل، وسالازار وديفاليرا في الغرب.

ومن ثمة ندرك أثر القدوة في عمل التاجر الكريم النفس والكريم الفعال.

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاما وكان رجلا صالحا روى عن شريكه الحديث والفقه. ولا ينبيك عن الشريك مثل الشريك، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجاري للزميل التاجر ،وما أدراك ما في الضمير التجاري: المخالب المخضبة تقطر من دم الضحايا، والمخارج، والحيل، والسعار المعذب المندفع نحو كل ما هو مادي ومالي...! إلى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة.

فلنستمع إذن لحاصل التقرير الختامي عن الشركة حيث يقول حفص: "جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم، فلم أر أحدا أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة".

ولئن سمعت أحاديث الورع في مجال الورع فمن العجب حقا أن يباهي الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وبزهده ونسكه وعلمه، مجتمعة، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنساك مجتمعين.

ولنستمع إليه مرة أخرى يقول بعد أن تتاركا: "في طول ما صبحت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف ما يسر ،ولم أر أحدا يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شئ أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله".

ذلك رجل من أقوى الرجال، يبطن مثل ما يعلن، ولا يصنع في السر إلا ما يصنعه في الجهر ،فيرى الله أمامه ولا يرى البشر.

ولئن جاء في الحديث أن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق، أو كان من أصول فقه أبي حنيفة أن الشك لا يزيل اليقين فإن هذا الأصل للناس وليس له. ولو كلفه ذلك جميع ما له.

إن أبا حنيفة قدوة للناس في علمه، فليكن قدوة للناس في عمله، وليأخذ نفسه بالشدائد، حتى إذا نقلوا عن الأصل، وخف الأثر في النقل، وصل إليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل.

قال لأبي يوسف: "ولا ترض من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها، يعتقدون فيك السوء وقلة الرغبة فيها، ويعتقدون أن علمك لا ينفعك ولا يفيدك إلا ما أفادهم الجهل الذي فيهم.. وكن من الناس على

حذر، وكن لله في سرك كما أنت له في علانيتك فلا يصلح أمر العلم إلا بأن تجعل سره كعلانيته".

ولما نهاه الأمير عن الفتيا فانتهى، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في داره فلم يجبه، قال يا أبت مالك لا تجيبني قال: "أخاف أن يسألني السلطان هل أجبت أحدا فلا أستطيع أن أقول شيئا".

ولقد كانت لديه مندوحة في أن يفتي، لكن الرجل القدوة لا يرى لنفسه الرخص ولا المنادح، وإنما يؤثر في حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حر في الوفاء.

على هذه القواعد وأشباهها قام ذلك البيت التجاري في دار ابن حريث بضع عشرات من السنين، تكفي للتمكين لتاجر صيت زاكي الأحدوثة نقب في البلاد ذكره وذكر عروضه من نفائس وأعلاق، ومكرمات وأخلاق، يحف به الحسن من كل جانب، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة، والوجه الصبوح خطاب توصية فيه القبول.

* * *

جاءت تكاليف الإسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين عما يسأل الناس عنه.

كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر،ويأتي على أهله الليالي ما يجدون فيها عشاء، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهي مسندته إلى صدرها يا عائشة ما فعلت تلك الذهب؟ قالت هي عندي، قال فأنفقيها، ثم غشي على رسول الله ﷺ وهو على صدرها. فلما أفاق قال هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة؟ قالت لا والله يا رسول الله. فدعا بها، فوضعها في كفه.فعدها فإذا هي ستة دنانير فقال: ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده. فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم.

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يوميا درهمين هما كل المخصصات العمرية! بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدرة! ويضرب عامله على البحرين (أبا هريرة) حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول "والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين" ويسأل عمرو بن العاص، من أين آل إليه المال ويشاطره أمواله.

مر يوما ببناء يبني بآجر وجص فقال لمن هذا؟ قالوا لعامل من عمالك قال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها.. وشاطره ماله! ولما أخذ يستخلف قالوا له لو أنك عهدت إلى عبد الله – ابنه – فقال: "بحسب أهل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد.. ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافا لا لي ولا علي".

لكن صاحب هذه النفس القوية يرى في فحمة الحلك أطفالا جياعا فيحمل إليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته!!

هذه العمريات التي تذر المفكر في ذهلة المتحير، وهذا التوفيق الذي سددت به العناية الإلهية خطى أبي بكر وعلي وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم في كل فن وضرب، وما تبع هؤلاء جميعا من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهي بها معالم التاريخ الإسلامي، ليست إلا أصداء متفرقة لصوت واحد، هو صوت المثل الأعلى من الرسول عليه الصلاة والسلام. ما يزال يدوي خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب السيار عن أن يدور.. وإنما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المدى، فتهتز له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة، لأن الصوت الأصيل الذي يدوي في الأرض هابط إليها من السماء. تصيب نفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا. فانتقلوا من الجاهلية إلى هدى الإسلام وغدوا حكاما وحكماء وعلماء ومشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالا في الوغى يجدلون الأبطال، ليس ما أحدثوه إلا آثار مما أحدثه الصوت الأول فيهم. فلما صعدت روحه إلى بارئها كانت كوعاء العطر إذا فض فدامه فاض العطر في كل مكان وانتشر!

ما عمر بن عبد العزيز، ولا المأمون، ولا أبو حنيفة، ولا الشافعي، ولا ابن سينا، ولا ابن رشد، ولا طارق بن زياد وأترابهم في كل فن من فنون العلم أو السياسة أو الحرب، إلا رجال تضرم جذوة الإيمان فيهم حرارة الرسالة التي كانت تغمر قلوبهم بالنور.

إنما هي الزعامة الصحيحة الملأى باليقين تخلق الناس خلقا جديدا وتنعكس على أنفسهم شتى الانعكاسات، فتحدث الأحداث متقاربة أو متباعدة، في العصر نفسه أو بعده بأعصر، فلا تهم المسافة الزمنية والمكانية، وإنما يهم الإيمان الصحيح الذي يخلق القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان.

وسترى بعد كيف كانت حياة أبي حنيفة قدوة للفحول والأبطال.

* * *

كان أبو حنيفة خزازا، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارا وصناعا.

هذا الإمام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبي أبي حنيفة، كان الخصاف يؤلف للمهتدي بالله كتاب الخراج، ويصنف كتبه العظيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال.. وهذا الكرابيسي يبيع الكرابيس، أو الثياب الخام، وهذا القفال يخرج يده فإذا على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملي في "صناعة الأقفال"، وهذا بان قطلوبغا يعمل خياطا، والجصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل في الجص. ثم هؤلاء الصفار من بيع الأواني الصفرية (النحاسية) والصيدلاني (من بيع العطور) والحلواني الذي كان أبوه يبيع الحلوى، والدقاق، والصابوني، والنعال، والبقال، والقدوري وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الإسلامية،أن هذه الأمة حققت العصور الأولى ماجاهد العالم الغربي عشرات القرون لتحقيقه، ولما يكد يحققه، أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيعة، وإنما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم. ويشهدون بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس سننه،وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجعلت لها سهمها المسلم في أسمى الذرى، فترى فيها ما لا تكاد تراه في أي أمة أخرى الفقهاء الصناع. والصناع الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معا ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوبا.

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز، كان العلماء عنده تلامذة، كما قال ميمون بن مهران، وعبد الملك بن مروان الذي قال عنه ابن عمر: إن لمروان ابنا فقيها فاسألوه، والمأمون عبقري التاريخ الإسلامي، وعيسى شرف الدين الأيوبي الذي يضع كتاب الرد على الخطيب البغدادي سنة ٦٢١هـ ينضح به عن إمامه أبي حنيفة.

تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق في كل الأمم وكل الأعصر فهما وتطبيقا. يفهمها الأميون، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأنها (فطرة الله التي فطر الناس عليها) قوامها

الصفاء والسهولة والصراحة، ففي حلبات البحث مضمار للأفذاذ وللأفراد وللملوك أيضا. كل ميسر لما خلق له، فلا غرو أن يرقى إلى الأوج العلي فيها أصحاب الحرف، وأن يسود فيها الرجل بهمته لا بمهنته، في حضارة لحمتها وسداها الإخاء، يحب المؤمن بها لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه، والمؤمنون فيها كالجسد الواحد، "إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

تلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التي نشهدها في الحضارة الإسلامية تصدر عن أصل عميق يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الإسلامي وتاريخ الفقه في سائر الأمم فهنالك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع، وهنا يصدره رجل الدنيا.. وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان. وهنالك بين المعاملات والعبادات خلافات أي خلافات، فلا يتحدث عن العبادات فقهاء كفقهاء الإسلام يضطربون في أسواق الحياة ولكن قسيسون ورهبان يستمرئون في عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويستنزلون فيوض الإلهام، أما الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقا ولكنها لا تعرف الرهبنة ولا الطوق ولا المراسيم، وهي إذا كانت جهادا ضد النفس وضد الكفر فهي أولا وبالذات دين اجتهاد.